6 الهوى الناقض للبدء النابض

إن الله جميل يحب الجمال.

يحبه لعبده، يريده أن يكون جميلا.

وأجمل الجمال: تجريد العبودية لله تعالى، خالصة، نقية، من غير خلط.

ليس للجمال الذي يحبه الله ترجمة أرفع من هذه.

عيش مع جمال موازين الإسلام.

ومع جمال حديث رسول الله ﷺ.

ومع جمال فقه ورثته من المجتهدين.

ومع جمال سيرة أئمة المؤمنين، من مجاهد وزاهد، وجندي وقائد باستقلال.

فمن خلط المعية فقد شان الولاء وغلظ.

ولكن يجرده، على الذي رُوي لنا من مذهب أبي القاسم الجنيد البغدادي.

قال أبو بكر الكتاني:

جرت مسألة في محبة الله تعالى بمكة، فتكلم الشيوخ فيها، وكان الجنيد أصغرهم سنا، فقالوا: هات ما عندك يا عراقي.

فأطرق رأسه، ودمعت عيناه، ثم قال:

(عبد ذاهب عن نفسه، متصل بذكر ربه، قائم بأداء حقوقه، ناظر إليه بقلبه.

obeikandl.com

فإن تكلم فبالله، وإن نطق فعن الله، وإن تحرك فبأمر الله، وإن سكن فمع الله.

فهو بالله، ولله، ومع الله) [1].

مع الله في كل حال...

❋ مع الله في سبحات الفكر :

يسيح فكره في خلوات الليالي مع عظيم صنع الله، يتدبر خلق الأرضين والسماوات وما فيهن من جمال وكمال، وتجول خواطره مع ما يوجبه الله عليه من النذارة والدعوة إليه.

❋ مع الله في لمحات البصر :

يرى الآيات التي تدل على أنه واحد، ويطالع دلائل إعجازه، ويشاهد واقع الناس، ما بين محبوب مطمئن أنزل الله سكينته عليه وألبسه رداء المهابة، وقلق مذموم ملعون، قد حلت نقمة الله فيه.

❋ مع الله حال احتدام الخطر :

يوقن أن الله لا يخذله عند وقوع الأذى وتصاعد الصراع، وأن فوق عسر المحن يسرًا ربانيًّا، يستجلبه بوحدة يحرص عليها مع إخوانه المؤمنين، يراغم الشيطان بها عند اختلاف الاجتهاد، وتزيينات الانفراد.

❋ مع الله في الرهط والمؤتمر :

يستمتع بجمال زحف النبي بعد النبي، يقاتل معهم من أرهاط الربيين كثير، ويعرف ما يحبه الله من ضوابط العمل الجماعي والتآمر بالمعروف، وأنه

---

(1) مدارج السالكين ٣/ ١٦.

لا مؤتمر إلا واحتمال تباين الرأي قـائم خـلال محاوراتـه، وأنـه لا خطـر في التباين إذا لم يكن ثم انتصار للنفوس.

❋ مع الله في حب أهل التقي :

يغبطهم على حكمة أوتوها، ومزيد عمل وفقوا له، فيشغفهم ودًّا، ويتملـق لهم لما يرى كلمتهم مجتمعة، وخطتهم واحدة، عساهم يدخلونه الزمرة.

❋ مع الله في كره من قد فجر :

يفاصلهم في استعلاء، ويتميز بعزة، ويتطهر عن تشبه، ويستـصغر كيـدًا ما هم بضارين به من أحد إلا بإذن القدير.

فكذلك يكون في كل حال... مع الله

مـع الله في سبـحات الفكـر مـع الله في لمحـات البـصر
مـع الله حـال احتـدام الخطـر مـع الله في الـرهط والمؤتمـر
مـع الله في حـب أهـل التقـى مع الله في كره من قـد فجـر[1]

ومع حقيقة الإنسان ومصيره

ثم يتم واقعيته، فيرى حقيقة ضعف الإنـسان وقـصوره، ويرثـي حالـه بألفاظ الحسن البصري، يقلب كفيه، ويرسل دمعته عليه، ويقول معه:

(مسكين ابن آدم..

محتوم الأجل، مكتوم الأمل

---

(1) للأميري في ديوان مع الله/ ٢٩، من قصيدة طويلة ، ألجأنا هذا المقدار الذي اقتبسناه منها إلى بعض التجوز في العروض في البيت الثاني.

أسير جوعه، صريع شبعه، تؤذيه البقة، وتقتله الشرقة)[1].

يطيل التأمل في هذا الأجل الذي يطوق الإنسان، ويخوف نفسه بحقيقة الموت الآتي المحتوم، ويعير سمعه إلى الفقيه القادري العلوي، إن أعوزته البلاغة، وهو يعظه:

الدهر عن طمع يغر ويخدع ... وزخارف الدنيا الدنية تطمع
وأعنة الآمال يطلقها الرجا ... طمعًا، وأسياف المنية تقطع
والموت آت، والحياة مريرة ... والناس بعضهم لبعض يتبع
واعلم بأنك عن قليل صائر ... خبرا، فكن خبرا بخير يسمع[2]

ويظل يرتقي في المشاهدة حتى يستشعر الآخرة من بعد الموت، وتكون رؤيته القلبية لها كالرؤية العيانية، مثل رؤية المحدث الزاهد عبد العزيز ابن أبي رواد الذي كان: **(كأنه يطلع إلى القيامة)**[3]، فيتردد قلبه بين بشاشة الإطلال على الجنة، ولذعة الإطلاع على النار، حتى يرتجف بدنه طمعًا وخيفة، فيعتقل لسانه عن ذكر الأموال، والقصور والمناصب والنساء، وتصير مجالسه كمجالس الإمام أحمد:

(مجالس آخرة، لا يذكر فيها شيء من أمر الدنيا)[4].

---

(1) أدب الدنيا والدين للماوردي / ٧٣.
(2) ذيل طبقات الحنابلة ١/ ٤٢٩.
(3) تهذيب التهذيب ٦/ ٣٣٩.
(4) مناقب أحمد/ ٢١٤.

المرتقي يخاف السقوط

فما يزال بعد ذلك محاصرًا بمشاهد القيامة، وحقيقة الموت القريب، وفضيحة الضعف البشري، فيفر يطلب فهما لحكمة الله أسمى، ويجدد التجرد، يبغي زيادة سكينة تحميه هول المشاهد والحقائق والفضائح، ثم يطلبه أخرى، فأخرى، في تجديد نيات وتوبات، حتى يحلق عاليا، ويبلغ ذروة العيش مع أوامر الله.

هنا: يميل بصره إلى أدنى، فيهوله احتمال السقوط بدفعة من شيطان عدو، فيحذو ، ويخشى هوى يهوي به نزولا وتدحرجًا، فيشرع يدرس أوصاف هذا الهوى، من قبل أن ينقض عليه في أعالي جوه وهو لا يعرفه، ويسأل فقهاء القلوب، من زاهد وشاعر، ينعتونه له.

فإنما سمى الهوى (**لأنه يهوي بصاحبه**) كما يقول الشعبي، التابعي الكوفي[1].

أي أنه مشتق من السقوط.

وقول الله تعالى: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [النجم:١] معناه: سقط وجنح للغروب

فالذي يتمكن منه الهوى، ويخالف دلالة القرآن والحديث ووصايا الفقهاء لن تراه إلا في تعثر ووقوع يكبه على وجهه، لا يعرف اتزانًا ولا صعودًا.

---

(١) أدب الدنيا والدين/ ١٤.

سبب الهوى

وسببه: وسخ يكون في القلب؛ من طمع وحسد وانتصار للنفس، يحجب الرؤية أو يشوشها، كالذي ينظر من وراء زجاجة سوداء.

أو يضاف إلى ذلك: ضعف عين الهاوي، تكون مقلته شوساء، متقاربة الأجفان، ضيقة المجال، فتزداد صورة الحق الشرعي عنده غبشا ولا تتكامل.

ولذلك أوصاه الشاعر أن:

انظر، وإياك الهوى، لا تمكنن

سلطانه من مقلة شوساء

فجراثيم تلك الأوساخ تغزو المقلة الشوساء، فتلتهب، فتعمى إن لم تعالج، كما أن تلك الجراثيم تكثر في نفس القلب، حتى يقف نبضه، فيكون الهوى ناقصا لحيوية البداية النابضة.

الهوى أسر وقيد

ومع أن ابن آدم محتوم الأجل، وأنه:

(أسير عمر يسير)[1].

فإنه يضع نفسه في أسر آخر يختاره، لو خلا إلى نفسه لعجب كيف اختاره.

كذلك وصفه ابن تيمية، فإنه لما سجن لم يظهر حزنا، وقال: **(المحبوس من حبس قلبه عن ربه، والمأسور من أسره هواه)**[2].

---

(1) أدب الدنيا والدين/ ١٠٤.

(2) ذيل طبقات الحنابلة ٢/ ٤٠٢.

فجعل الهوى أسرًا.

مع ذلك ترى الناس يقعون فيه مرة بعد مرة، لما فيه من إغراء، والعاقل يقيد نفسه عنه إن جربه مرة، ألا يسهو فيستجيب ثانية للإغراء، فيكون كحر لم يصب أصل الحرية واعتنى بصورتها، فمد يديه لقيد الهوى، أو كعبد استخذى لتعبيده لما خدعوه وبدلوا أسماء القيود، وجاءه الناصح الأمين الصريح بقيد يحوطه عن مشيه إلى الهوى، فرفضه.

وهما من تعجب عبد الوهاب عزام لقلة معرفتهما، فقال:

قيد الحر نفسه برضاه وأبى في الحياة قيد سواه

وترى العبد راضيا كل قيد غير تقييد نفسه عن هواه[1]

والحقيقة أن هذا القيد الثاني الذي يمنع الانفلات إلى الهوى ليس بقيد وإن استعار اسمه، وإنما هو محض ارتباط بالله وأمره ونهيه، يظن القلب الساذج أنه من جنس القيود، فيطلب التحرر منه، فيستدرجه إغراء الهوى، فيجوب ميادينه وعرصاته، يحسب أنه المتحرر، وبئست حرية الأهواء.

جزم وليد الأعظمي بذلك، ولم يجعل بين الحالتين إلا حدًا واحدًا، فقال:

والقلب ما لم يكن بالله مرتبطًا فإنما هو بالأهواء جواب[2]

حرية اسمها: الارتباط

أو تقلب ودوران اسمها: الحرية.

---

(1) ديوان المثاني/ ١٤٧.

(2) مجلة التربية الإسلامية٧/ ٤٩٤.

تنازع يقود إلى البطالة

وللهوى أربع مضرات أخر سوى هذا الأسر، رآها ثقات الأطباء عند أهل الهوى وأحصوها:

منها: أنه يصد عن الحق، بحيث تأتي بالدليل والحجة، فيجحدهما الهاوي، وكان أعظم تخوف أمير المؤمنين علي رضي الله عنه من ذلك، فقال متشددًا:

(إن أخوف ما أخاف عليكم اثنتين:

طول الأمل، واتباع الهوى.

فأما طول الأمل فينسي الآخرة.

وأما اتباع الهوى فيصد عن الحق)[1].

ومنها إفساد العقل، فتكون اجتهاداته معيبة غير موزونة.

فخذ بمنهج من يعصي هواه ... وقد أطاع أهل الحجا في كل مؤتمر

إن الهوى يفسد العقل السليم ومن ... يعص الهوى عاش في أمن من الضرر

ومنها التنازع بين الإخوان، وتطوير اختلاف وجهات النظر إلى تخالف بين القلوب.

وقد استقصى سيد قطب أخبار المختلفين، فتبين له أنه: **(ليس الذي يثير النزاع هو اختلاف وجهات النظر، إنما هو الهوى الذي يجعل كل صاحب وجهة يصر عليها مهما تبين له وجه الحق في غيرها، وإنما هو وضع الذات في كفة، والحق في كفة، وترجيح الذات على الحق ابتداء)**[2].

---

(1) الزهد لأحمد/ ١٣٠.

(2) الظلال ١٠/ ٢٦.

obeikandl.com

ومنها –وليس بآخرها–: البطالة، وترك الجماعة، والقعـود عـن العمـل والمشاركة في أبواب الخير التي يطرقها الدعاة، حتـى ينـسى معنـى النـشاط ومغزى الدعوة، فإنها:

ثـــلاث مهلكـــات لا محـــالة هـــوى نفـــس يقـــود إلى البطالـــة
وشـــح لا يـــزال يطـــاع دأبـــا وعجب ظـاهر في كـل حـاله[1]

ضرورة علاج الهوى

وأضر من هذه الأضرار كلها: أن يكون المرء متماديا لا يعالج هواه، غـير مسرع إلى مخالفته، حتى أن مثل أبي العتاهيـة يـضجر ويتـأفف مـن بـرودة صاحبه في ذلك، فيخاطبه:

خـــالف هـــواك إذا دعـــاك لريبـــة فلـــرب خـــير في مخالفـــة الهـــوى
حتى متى لا ترعـوي، يـا صـاحبي حتى متى؟ حتى متـى؟ وإلى متـى؟

ويتعجب ثانية لفتوره وعدم المسارعة إلى الإصلاح فيقول:

سبحان ربك كيف يغلبك الهوى ســـبحانه، إن الهـــوى لغلـــوب
سبحان ربك ما تزال وفيك عـــن إصـلاح نفـسك فـترة ونكـوب

وكان صاحبه كان كبعض من نراهم اليوم، ينكرون تلبسهم بـالهوى، لا يكتشفونه، فيقعدون عن تداو وعلاج، ولكن الطبيب الماهر يكتشف وإن لم يحسوا به.

ومـن يطـع الهـوى يعـرف هـواه وقـــد ينبيـــك بـــالأمر الخبـــير

---

(1) نفح الطيب ٨/ ٥٩.

فالخبير، ومن عنده علم الفتن وصفات الشر يعرف الهوى الكامن المستقر من آثاره الظاهرة لا محالة.

ولذلك يجب الإصغاء لطبيب خبير من السلف طلب منا إضعاف هذا العدو فقال:

(الهوى لا يترك العبودية تصفو، وما لم يشتغل السالك بإضعاف هذا العدو الذي بين جنبيه لا تصح له قدم، ولو أتى بأعمال تسد الخافقين.

والرجل كل الرجل من داوى الأمراض من الخارج، وشرع في قلع أصولها من الباطن، حتى يصفو وقته، ويطيب ذكره، ويدوم أنسه).

سماها رجولة، ووافقه مصطفى صادق الرافعي في ذلك، فقال:

(إنما الرجولة في خلال ثلاث:

عمل الرجل على أن يكون في موضعه من الواجبات كلها قبل أن يكون في هواه.

وقبوله ذلك الموضع بقبول العامل الواثق من أجره العظيم.

والثالثة: قدرته على العمل والقبول إلى النهاية)[1].

ولو استقام العاملون على هذه الثلاث لما وجدت فتنة مجالا للظهور أبدًا.

أداء الواجب، بانتظار الأجر الرباني لا الثناء العاجل ولا الرئاسة.

والثابت على ذلك.

---

(1) وحي القلم ١/ ٣٦٨.

نعم، هو علاج صعب... لكنه لذيذ.

صعب وشديد، كما قال أبو العتاهية:

أشد الجهاد جهاد الهوى ... وما كرم المرء إلا التقى

وأخلاق ذي الفضل معروفة ... ببذل الجميل، وكف الأذى

أي كف لأي ظنونه وأذى لسانه، عن المؤمنين، ويزداد شدة إن أطال الإهمال فيما قرر المحدث الثقة الزاهد الكوفي محمد بن كناسة في قوله:

إذا اعتادت النفس الرضاع من الهوى ... فإن فطام النفس عنه شديد[1]

لكن صعوبة هذا العلاج تخف بعد المباشرة فيه، ويأتيه المدد من رب رحيم.

وحين ذاك، ومع كل جولة ينتصر فيها على هواه، ينتشي ويلتذ لذة ليس كمثلها لذة، كلذة من يرتقي قمة صعبة ويعلوها، فإن: (**في قوة قهر الهوى لذة تزيد على كل لذة**).

كما يقول ابن الجوزي[2]:

وإنما نعني بعلاج الهوى: مناقضته ومخالفته، والعمل بضد ما ينادي، كما ورد في قول الشاعر:

هي النفس إن أنت سامحتها ... رمت بك أقصى مهاوي الخديعة

فإن شئت فوزا فناقض هواها ... وإن واصلتك أجزها القطيعة

---

(1) الأغاني ١٣/ ٣٤٢.

(2) صيد الخاطر/ ٥٨.

ولا تعبأ بميعادها فميعادها كسراب بقيعة [1]

بل ربما ذلك لا يكفي، فإنه يراوده مرة أخرى، ولكن نحتقره على طريقة سيد الزهاد إبراهيم بن أدهم حين وصفه ابن أخته محمد بن كناسة:

* أهان الهوى حتى تجنبه الهوى * [2]

فنزدريه، ونهزأ به، ونضحك عليه، حتى يولي مدبرًا، يتجنب المرور عبر دربنا بعدها أبدا.

* * *

(1) نفح الطيب ٧/ ٣٦٢.

(2) شطر في الأغاني ١٣/ ٣٣٧.

obeikandl.com